

نشأة التشيع وتاريخ ظهوره من وجهات نظر مختلفة: نقد وتحليل

علي آقانوري^١

تاريخ القبول: ١٤٣٢/٤/٨

تاريخ الوصول: ١٤٣٢/١/٢٧

توجد هناك رؤى متعددة ووجهات نظر مختلفة غاية الاختلاف في بدء نشوء التشيع وتاريخ ظهوره، والتي جعلت من هذه الدراسة مجالاً لمعالجتها بعرضها ونقدها. وقد عرض الباحث في مقاله هذا الدلائل المطروحة لكل من هذه الأقوال، كما حاول البحث عن الجذور الفكرية والعقائدية إلى جانب الميولات الكلامية الدخيلة في اتخاذ آية من هذه الآراء عقيدة لأصحابها وهو ما يكشف بطبيعة الحال الخلط والتناقض في بعض ما تطرق له الباحثون في هذا المجال؛ كل ذلك استناداً إلى المصادر الأصيلة في التاريخ والكلام دون التغاضي عما جاءت به الدراسات المعاصرة الحديثة. ولتيسير دراسة الموضوع واستيعاب جوانبه ارتأى الباحث خلال المنهج التاريخي أن يستخلص كل ما ورد في هذا المجال من وجهات نظر وآراء يدرجها في ثلاث خانات:

١. الآراء التي تعتقد بأن التشيع قد ظهر متزامناً مع ظهور الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله، نفسه هو الذي وضع الحجر الأساس لهذا المذهب؛

٢. الآراء التي تقول أن الشيعة هي حصيلة الأحداث السياسية والدينية والفكرية في الصدر الأول؛

٣. وأخيراً ما قاله البعض الآخر في أن يكون هذا المذهب هو أحد المضاعفات التي فرضتها على الأمة الإسلامية علاقة المسلمين بغيرهم من الأجانب.

الكلمات الرئيسية: التشيع، نشأة التشيع، عبدالله ابن سبأ، الفرس، الأحداث السياسية والمذهبية

١ . الأستاذ المساعد وعضو الهيئة العلمية بجامعة الأديان والمذاهب، العنوان الإلكتروني: aghanoorii123@gmail.com

المقدمة

قد اختلف الباحثون حول بعض المصطلحات والمفردات التي تتعلق بالشيعة، ولم يتفقوا على رأي واحد لبيان معانيها وتحديد أشخاصها ومصاديقها.

وقد كان لا بد لهذا الاختلاف في الرأي من أن ينعكس على بحثنا هذا، حيث يجعلنا في مواجهة بعض المشاكل والعقبات على صعيد تعريف مفهوم الشيعة والتشيع، وتطبيق بعض المصطلحات المذهبية على مصاديق هذا المفهوم.

ولكن هذا التباين في وجهات النظر، وبالرغم من اتساعه، فهو لا يصل إلى الحد الذي يمتنع معه - ولو بمسقة وبعد إعمال نحو من المسامحة - انتزاع معنى مشترك يكون مقبولاً لدى جميع هذه الآراء كافة.

غير أننا هنا أمام مسألة أخرى أكثر صعوبة وتعقيداً، وهي البحث عن كيميّة وزمان ظهور الشيعة والتشيع كواحدٍ من التيارات السياسيّة - المذهبيّة، ذلك أنّ اختلاف الآراء وتعددها في هذه المسألة قد بلغ حدّاً استحال معه الحصول على قدر متيقّن يكون متفقاً عليه ومقبولاً من الجميع. ولا سيّما إذا ما التفتنا إلى أن الدوافع والاتجاهات المذهبيّة والسياسيّة وما كانت تحمله معها من مظاهر التعصب وأشكاله حبّاً أو بغضاً، كانت هي المحرك الأساسي الذي يقف وراء كثيرٍ من الأقوال والتحليلات، التي اختلفت و- أحياناً - تضاربت، والتي تناولت بالبحث مسألة الزمان والملايسات التي أحاطت بتشكّل الشيعة.

ولهذا السبب نجد أنفسنا هنا في مواجهة نظريّاتٍ متباعدة جداً لا يمكن الجمع بينها، من ناحية زمان ظهور التشيع، أو من ناحية الأصول الثقافيّة التي كانت وراء نشأته وقيامه. إذ في الوقت الذي ذهب بعضهم إلى القول بأنّ التشيع حالة نابعة من صميم الثقافة الإسلاميّة، وليس بحالة منفصلة عن الإسلام،

ذهب آخرون إلى أنّ التشيع ما هو إلاّ وليد التحوّلات السياسيّة والمذهبيّة التي ألمت بالمجتمع الإسلاميّ آنذاك، وبطبيعة الأمر، فهو يمثّل حالة عرضيّة طارئة. كما أن بعض النقولات والتحليلات المتحيّزة تنأى بالتشيع عن أن يكون ناشئاً من نفس الإسلام وتعاليمه، أو من ثقافة المسلمين أنفسهم، لتجعله مذهباً مجموعاً ومختلقاً وحصيلّة للتواطؤ والمؤامرات التي مارسها وبمارسها أعداء الإسلام.

ومع أن هذا النحو من الاختلاف لم يكن من مختصّات الشيعة، بل كان آفةً وبلاءً منيت به سائر الفرق أيضاً، إلاّ أنّه بالنسبة إلى الشيعة أخذ طابعاً بارزاً ومميّزاً.

وسنعرض فيما يلي مجموع ما قيل في هذا الشأن، ونلخصه في ضمن نظريّاتٍ كليّة ثلاث:

١ - إن ظهور التشيع مترام مع الإسلام، وأنّ النبيّ الأعظم (ص) نفسه هو من دعا له.

٢ - إن ظهور التشيع هو أحد التداعيات والإنعكاسات التي أعقبتها الأحداث والتحوّلات السياسيّة - المذهبيّة لعصر ما بعد وفاة النبيّ (ص).

٣ - إن ظهور التشيع هو إحدى النتائج الفكرية الناجمة عن علاقات المسلمين بغير المسلمين، وبالتالي: فهو ذو منشأ غير إسلامي.

ونشرع هنا بدراسة هذه الأقوال والتعرّض لها بشكل موجز.

١) التشيع: المولود الطبيعي للإسلام:

يذهب أصحاب هذه النظرية إلى أنّ التشيع - بوصفه مذهباً أصيلاً ومتحدّراً، يحمل معنى الاعتقاد بثبوت الإمامة والقيادة نصّاً لعليّ (ع) بعد النبيّ (ص)، والمولاة والاتباع لهذا الإمام - لم يكن قريناً لظهور الإسلام فحسب، بل هو جزء من أهداف وتعاليم صاحب الرسالة (ص) نفسه (آل كاشف الغطاء، ١٤١٥، ٤٣؛ الأمين، لا تا، ١٩ - ٢٠؛

وأيضاً: الغريفي، ١٩٩٠، ٨١، فما بعدها)، مضافاً إلى كونها واردة بعبارات مختلفة، ومستندة إلى أسبابٍ وردودٍ مختلفة، إلا أنها بمجموعها تصلح للحكاية عن أن مصطلح «شيعة عليّ(ع)» - ولو بمعناه الخاص، أعني: معناه اللغوي، دون ما له من المعنى الإصطلاحي والمذهبي - لم يكن معروفاً في عهد النبي الأعظم(ص) فحسب، بل هو أيضاً كان يمثل علماً يُشار به إلى جماعةٍ أو منهج.

فمثلاً، يذكر السيوطي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: الآية ٧) روايةً يُنهي سلسلة سندها إلى جابر بن عبد الله الأنصاري ورد فيها عن لسان هذا الصحابي الجليل أنه قال: «كنا عند النبي(ص) فأقبل عليّ، فقال النبي(ص): والذي نفسي بيده أن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة» (السيوطي، ١٤٠٣، ٦: ٥٨٩).

وفي رواية أخرى في تفسير الفرات الكوفي، أحد تفاسير الشيعة، عند قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: الآية ٧)، ينقل عن النبي(ص) قوله: «شيعة عليّ الذين أنعمت عليهم بولاية علي بن أبي طالب(ع)، لم تغضب عليهم، ولم يضلوا» (الفرات الكوفي، ١٤١٠، ٢).

والمدلول الأصلي لهذا الصنف من الروايات التي ورد فيها ذكر صريحٍ لشيعة عليّ(ع)، هو الحكاية عن أن علياً(ع) نفسه كان له موقع متميز بين الصحابة، وفي الوقت نفسه، أنها توجد حكاية تذكر أن أشياعه هم على طريق الفوز والنجاة.

ومن هذا المنطلق، يمكن أن يُقال: بأن مصطلح «شيعة عليّ(ع)» كان يُطلق على أفراد من الصحابة - كانوا موجودين في عهد النبي(ص) - يتبعون علياً(ع) ويوالونه، ولأنهم يقتدون بعليّ(ع) فقد وضعوا أنفسهم دائماً في انتظار تعاليم الوحي، فسلموا كل ما جاء فيه تسليماً تاماً تاركين

المظفر، لا تا، ١٨؛ الوائلي، ١٤١٤، ٢٧؛ الحسني، ١٩٨٣، ٧٧؛ قياض، ١٩٨٦، مقدمة الشهيد الصدر).

ومع أن كل واحدة من الفرق الإسلامية الكبرى كانت تحاول إثبات أصالة مذهبها وتجزئه عن طريق البحث عن جذورٍ ومناشئٍ لظهورها في عصر رسول الله(ص)، إلا - وطبقاً لما سيأتي - أن الشواهد والقرائن التي أبرزها الشيعة وحصلوا عليها كانت من نوعٍ آخر.

وقد كان النوبختي والقمي من الأشخاص الذين تحدّثوا عن اتجاه أطلق عليه اسم «الشيعة» وكان له حضور في زمان النبي(ص). وقد عدّا هذا الاتجاه أول الفرق الإسلامية (النوبختي، ١٣٥٥، ١٧؛ الأشعري القمي، ١٣٦١، ١٥، الرازي، ١٩٥٧، ٢٥٩).

وقد وقعت هذه النظرية، بنحوٍ من الأنحاء، محلاً للتأييد من قبل بعض المستشرقين، وكذلك من قبل بعض علماء أهل السنة ومؤلفيهم (أحمد أمين، لا تا، ٣: ٢٠٨-٢٠٩؛ كردعلي، ١٣٨٩، ٥: ٢٥١، نقلاً عن السبحاني، ١٤١١، ٦: ١١١؛ عمارة، ١٩٩٧، ٢٠٠؛ وأنظر - أيضاً - الشيبلي، ١٩٨٢، ١: ٢٢ - ٢٥). وحيث أن ذلك مأخوذ من مصادر الإمامية، فمن الممكن القول باعتباره من تقارير الشيعة أنفسهم، الأمر الذي قد يفتح المجال أمام نقده والطعن فيه.

غير أن هناك أدلة تاريخية وروائية أخرى تقوي وتدعم ما جاء في هذه النظرية. فقد وردنا في كتب الشيعة والسنة على حدٍ سواء العديد من الروايات المنقولة عن لسان النبي(ص)، والتي تشير إلى أن فرقة ما كان لها وجود في عصر الرسالة، وكانت تختص باسم «شيعة عليّ(ع)».

وهذه الطائفة من الروايات وإن كانت مبثوثة في طبقات مختلف المتون الحديثية - التاريخية بشكلٍ متناثر ومتفرق (قسم معجم مركز الدراسات، ١٤١٣، ٧: مادة (شيعة)؛ الصدوق، لاتا؛ السيوطي، ١٤٠٣، ٦: ٥٨٩؛ ابن حجر، ١٤١٤، ١٥٤

وراعهم تقاليد الجاهلية الأولى وعادتها الغابرة، مما جعلهم دائماً بمنأى عن الإعتراض على كلام النبي (ص) وسيرته.

وإذا بنينا على مثل هذا التحليل، فمن غير البعيد - حيثئذٍ - أن يُقال بأن النبي الأعظم (ص) عندما تحدّث عن الشيعة وذكر أوصافهم فهو في الواقع إنّما كان يتحدّث عن أولئك المنتسبين إلى مدرسة الرسالة نفسها، وعن المهتدين حقاً بهدي النبوة، ولا سيّما بالنظر إلى ما ورد في بعض الأحاديث عن النبي (ص) من قوله (ص): «أولئك شيعتنا وعليّ إمامهم»، أو حديثه (ص) عنهم بلفظ «شيعتنا»، أو «شيعتي وشيعة أهل بيتي» (قسم معجم مركز الدراسات، ١٤١٣، ٧: ٦٦٨).

وعلى هذا الأساس يبدو من الصعب تاريخياً إثبات وجود الشيعة بوصفهم فرقة مذهبية لها امتيازها عن سائر الفرق - كما هو المعنى المتبادر من المصطلحات المذهبية المتداولة - بالإستناد إلى تلك الروايات، بل أن أحداً من علماء الشيعة أيضاً لم يدّع أن الشيعة كان لها حضور تاريخي في عهد رسول الله (ص) بوصفها فرقة من الفرق الإسلامية.

وقد استبعد بعضهم وأنكر وجود اتجاه وتيار كهذا في ذلك العصر، بدعوى أن الاعتقاد بالرجعة وبعض الآراء الكلامية المرتبطة بالإمام ومواصفات الإمامة لم يكن لها وجود أصلاً في العصور الأولى لتشكل التشيع، وإنّما يعود ظهورها والقول بها إلى عصور لاحقة.

ولكنّ هذا الاستبعاد والإنكار ما هو إلّا شكل من أشكال الخلط في هذا البحث، وذلك لم ينشأ إلّا عن عدم التوجّه والإلتفات إلى محلّ التزاع (صحي، لاتا، ٣٤). ومن الطبيعيّ جدّاً في السير التكاملية للمناهج والمدارس الفكرية أن يعمد كلٌّ منها إلى طرح مواضيع أو مفاهيم جديدة أو بلورتها وتسليط الضوء عليها بما يتناسب وظروف الزمان ومتطلباته.

وفي المقابل، نستطيع أن نجد روايات أخرى ونقولات تاريخية متعدّدة، لا تقلّ أهميّة ولا عدداً عن تلك الروايات،

وهي تتكفّل بوضوح بالكشف عن المساعي المتواصلة والمهادفة التي كان يقوم بها النبي (ص) لإثبات المترلة الخاصة التي كانت لأمر المؤمنين عليّ وأهل البيت (ع) والتأكيد على عظم شأنهم وعلو قدرهم.

لا يتسع المجال في هذا المقال لاستعراض الروايات والأخبار الكثيرة والمعتبرة التي يقبل بها حتى خصوم الشيعة أيضاً. وإنّما نكتفي هنا بالإشارة إلى أن المطالع والمتتبع لسيرة نبينا الأعظم (ص)، وكلامه، وكيفية عشرته مع عليّ (ع)، منذ أن بدأ دعوته بدعوة عشرته في «يوم الإنذار»، وما قاله (ص) في تلك الحادثة، في الحديث المشهور بـ «حديث الدار» (راجع: الحسيني الرفاعي، ١٩٨٦)، وحتى إكماله (ص) لدعوته في الحادثة المعروفة بـ «حادثة الغدير»، والمتتبع أيضاً للأحاديث المشهورة المروية عنه (ص)، كحديث الثقلين، وحديث المترلة، وحديث الغدير، يظهر له بوضوح أنّه (ص)، من خلال هذه الأحاديث والوقائع، إنّما كان بصدد الإعداد التربويّ لعليّ (ع) والتعريف به بوصفه الشخص المؤهل الذي يكون لائقاً بخلافته (ص) ومتابعة طريقه من بعده.

٢) التشيع حصيللة التحوّلات والأحداث السياسية

والفكرية لدى المسلمين الأوائل

رأينا في النظرية الأولى أن التشيع كان يمثّل ظاهرة منترعة من صميم الدعوة الإسلامية نفسها، وأنّ تشكّله كان مترامناً مع ظهور الإسلام وقيامه.

وأما هذه النظرية فهي تعتبر التشيع وليداً للتحوّلات والتزاعات السياسية-المذهبية، وترى فيه نوعاً من الإبتعاد والإفتراق عن جسد الإسلام والأمة الإسلامية.

ومع أن أصحاب هذه النظرية لم يتفقوا فيما بينهم على قراءة واحدة لكيفية وزمان تشكّل هذه الظاهرة، إلّا أنّهم اتفقوا على رأي وهو النظر (الصدر، ١٤١٤؛ والحسيني،

١٢٣ - ١٢٧؛ أحمد أمين، لاتا، ٣: ٢٠٩؛ و١٩٦٩: ص ٢٦٧؛ السبحاني، ١٤١١، ٦: ١٠٠؛ حسن إبراهيم حسن، ١٣٦٠، ١: ٢٠٥؛ فياض، لاتا، ص ٣٧. ولمزيد من التفصيل حول أصحاب هذه النظرية ودفاع بعض المستشرقين عنها راجع: الوائلي، ١٤١٤، ٢٤؛ صبحي، لاتا، ٣٢ - ٣٥؛ وراجع في نقدها: عمارة، ١٩٩٧، ص ٢٠٠ - ٢٠٢). وهو نفس الحق الذي كان عليّ (ع) مصرّاً عليه منذ اليوم الأول لحصول تلك الحادثة، وحتى اللحظة الأخيرة من عمره الشريف (لك أن تلاحظ نموذجاً لهذا الإصرار في نهج البلاغة في خطبته (ع) المعروفة بالخطبة الشمشقية)، وإن كان لم يُقدم على الإتيان بأية خطوة عملية في سبيل إحقاق هذا الحق. وهذا الموقف المدافع عن عليّ (ع)، والذي وصل إلى حدّ أن بعض أولئك الأصحاب قدم روجه رخيصه في الدفاع عن هذا الحق، حيث نقلت ذلك معظم المصادر التاريخية القديمة، لدى الشيعة والسنة على السواء. كما أن بعض أرباب الملل والنحل - في حديثهم عن أولى الانقسامات التي شهدتها المسلمون بعد وفاة النبي - سجّلوا وجود فرقة كانت تعرف باسم العلوية، أو شيعة عليّ (ع)، أو أنصار عليّ (ع) (الناشي الأكبر، ١٩٧١، ١٠؛ النوبختي، ١٣٥٥، ٢ - ٤).

ومن نافلة القول هنا أن الأهداف والدوافع التي كانت تقف وراء مثل هذا الدفاع عن حقّ أمير المؤمنين (ع) كانت مختلفة ومتعددة، فهي ليست بأجمعها ناشئة عن آراء ومبانٍ مذهبية، بل بعضها ناشئ عن عقيدة دينية، وقسم منها كان ينطلق من دوافع القربى والصلة النسبية، وقسم آخر من معرفة البعض بأنّ لدى عليّ كافيّة المؤهلات الفردية المطلوبة (صبحي، لاتا، ٣٣ - ٣٤. وما ورد في هذا المقام من دفاع أبي سفيان عن خلافة عليّ (ع) من جملة مؤامراته الواضحة والمكشوفة).

وفي الوقت نفسه فقد كان التشيع بمعنى محبة عليّ (ع) واتباعه والإعتقاد بحقه في أن يخلف النبي (ص) هو إحدى

إلى التشيع على أساس أنّه يماثل سائر التحوّلات السياسية والفكرية ويقع في عرضها، ويشابه الحوادث الطارئة التي تطفو على مسرح الأحداث.

وقد استعرض الباحثون هذه النظرة الشمولية الكلية من خلال آراء جزئية بينها تباعد من الناحية الزمانية، وذلك بالشكل التالي:

١- تشكّل التشيع في حادثة السقيفة في السنة الحادية عشرة من الهجرة مترامناً مع وفاة النبي (ص).

٢- تشكّل التشيع في عهد خلافة عثمان وفي سياق الحوادث والتراعات التي ترتبط به.

٣- التشيع وليد الحوادث التي أفرزتها حرب الجمل.

٤- التشيع من تداعيات التحكيم في حرب صفين.

٥- ظهور التشيع بعد شهادة أمير المؤمنين عليّ (ع).

٦- التشيع هو أحد انعكاسات شهادة الإمام الحسين (ع).

٧- ظهور التشيع في أواخر القرن الأول الهجري.

٨- ظهور التشيع في حضمّ التحوّلات السياسية -

المذهبية والتراعات الفكرية التي شهدتها عصر الصادقين.

هذه هي الآراء التي وردت في كلمات عددٍ من الباحثين

(للإحاطة بهذه الآراء، راجع: الوائلي، ١٤١٤، ٣٠ - ٣١؛

عبدالحاميد، لاتا، ١٤ - ١٧؛ الشيباني، ١٩٨٢، ١: ٢٢ -

٢٣)، ويبدو أن كلّ واحدٍ منها يمثّل نظرية كان يقول بها

بعض المتقدّمين أو المعاصرين ويبيّن فيها وجهة نظره الخاصة

حول كيفية تكوّن التشيع ونشأته الأولى.

أ) تشكّل التشيع في حادثة السقيفة:

عمدة الأدلة التي تمسك بها أصحاب هذه النظرية أن عدداً من صحابة النبي البارزين أعلنوا يوم السقيفة موقفهم الداعم لأمير المؤمنين، والمشدّد على أهليته واستحقاقه لتوليّ مقام الخلافة عن النبي (ابن الأثير، ١٤٠٩، ٢: ١٠ - ١٤؛ اليعقوبي، لاتا، ٢:

النظريات التي طُرحت بعد وفاته في عرض سائر النظريات الأخرى.

ولم يشر أصحاب هذه النظرية إلى المقدمات والخلفيات المسبقة التي دفعت هؤلاء الأصحاب لإثارة مسألة الدعوة إلى تسليم القيادة لأمير المؤمنين(ع)، إلا أن جملة من الباحثين رأوا أن إثارة هذه المسألة في حادثة السقيفة لم يكن نتيجةً لأفكار طارئة خلقتها ظروف تلك الحادثة، بل إنما هو استمرار لذلك الاتجاه الذي برز في حياة النبي(ص)، بعد أن كان هو شخصياً من غرس بذوره (فياض، لاتا، ٣٦ - ٣٧).

ومن الواضح، أن مجرد إبداء بعض أصحاب النبي(ص) مخالفتهم واعتراضهم على انتخاب أبي بكر للخلافة (البلاذري، ١٤١٧، ٢: ٢٦٢، فما بعدها؛ يعقوبي، لاتا، ٢: ١٢٤ - ١٢٥؛ وراجع أيضاً: الناشئ الأكبر، ١٩٧١، ٩ - ١٠)، لا يمكن عدّه نابعاً من اعتقاد هؤلاء المعترضين بأن علياً(ع) هو الأولى بالخلافة نظراً لما يمتلكه من الإستحقاق الذاتي والمؤهلات الفردية، أو بسبب علاقة النسب والقربى التي تجمعها بالنبي الأعظم، بل لا بدّ قبل ذلك من التعرف على المقدمات التي كان النبي(ص) قد أعدّها ومهدّها في سياق بيان منزلة علي(ع) ومكانته الدينية، ذلك أن بعض تلك الخصائص والمؤهلات كان - إلى حدّ ما - متوفراً لدى عددٍ من الأصحاب أيضاً؛ إذ من المسلمّ أنه لولا كون الأرضية الإجتماعية آنذاك مهينةً لتقبّلهم، ولولا وجود إقبالٍ نسبيٍّ من المجتمع نحوهم، لما كان لهم حظٌّ على الإطلاق فيما نالوه.

ب) تشكّل التشيع في خضمّ النزاعات المرتبطة بخلافة عثمان:

يتبيّن أصحاب هذه النظرية أن الجذور التي أدّت إلى تشكّل التشيع هي تلك الحوادث المهمة والمصيرية السياسية -

المذهبية التي جرت أحداثها أواخر فترة خلافة عثمان (الوائلي، ١٤١٤، ٢٥؛ عبد الحميد، لاتا، ١٥)، كما اعتبروا أن هذه التحوّلات، وبخاصّة الانقلاب على عثمان والذي تسبّب في مقتله، كانت، بشكلٍ أو بآخر، نقطة الإنطلاق لظهور الفرق الأخرى. وهم يجعلون ظهور الفكر الشيعي في هذه الحقبة بالذات مرتبطاً بالدور الذي مارسه شخص يُدعى عبد الله بن سبأ، حيث يزعمون أنه يهودي الأصل ومتأثر بثقافة اليهود، مما يعني بالتالي أن التشيع عندهم يعتبر حالة طارئة آتية من خارج إطار الثقافة الإسلامية (المقريزي، ١٩٥٩، ٣: ٢٦٢؛ عمارة، ١٩٨٤، ١٥٤). ومن هنا نوجّل المناقشة والبحث في هذه النظرية إلى المبحث الثالث حين نعرض لرأي القائلين بأن التشيع هو من صنيعة الأجانب وغير المسلمين.

ج) ظهور التشيع في خضمّ النزاعات السياسية - العسكرية في عهد علي(ع):

تواجهنا في بيان هذا الرأي والحادثة والزمان الذي أدّى إلى بروز هذه الظاهرة نظريتان اثنتان يتفق أصحابهما على القول بأن اسم «الشيعه» وظهور فرقة معينة تحمل هذا الاسم كان مرده إلى عهد خلافة الإمام علي(ع)، وما هيأه ذلك العهد من تداعيات اتخذت لها مكاناً على مسرح الأحداث (الصدر، ١٣٩٩، ١٠). غاية الأمر أن إحدى هاتين النظريتين تجعل تاريخ ظهوره يوم الجمل، كنوع من الردّ على القائمين بهذه الحرب (الناكثون) (ابن النديم، لاتا، ٢٢٣؛ عبد الحميد، لاتا، ١٥؛ مشكور، ١٣٧٢، ص ٤٠). وهذه النظرية وإن أخذ بها وقبلها بعض المستشرقين، كفلهاوزن (فياض، لاتا، ٣٧ - ٣٨)، إلا أن الظاهر من كلام ابن النديم (والذي اعتمد عليه فلهاوزن) أنه لم يكن بصدد إثبات ظهور الإتجاه والفكر الشيعي في تلك الحقبة،

وقيامه وشهادته حتى على صعيد البذور الأولى والعوامل الأصلية لظهوره ونشأته (الوائلي، ١٤١٤، ٢٥ - ٢٦؛ صبحي، لاتا، ٤٧ ٤٩). بل ذهب بعضهم إلى أن هذا المذهب بعد وقعة الطف أخذ طابعاً سياسياً (الوائلي، ١٤١٤، ٢٥-٢٦؛ صبحي، ن. م. ص ٤٨؛ نشار، ١٩٩٧، ٢: ٣٤).

ويبدو أن الذي دعا بعض الكتاب - ولا سيما بعض المستشرقين- إلى اعتبار ذلك الزمان زماناً لظهور التشيع وبداية انطلاقه، أمران:

أحدهما: الأثر المصري الذي تركته ثورة الإمام الحسين(ع) وشهادته على الشيعة، والذي عكس انسجاماً داخلياً وتلاحماً عاطفياً فيما بينهم، وبالتالي تقوية للتشيع وترسيخاً لأركانه.

والثاني: حضور فكر أهل البيت ومؤلفاتهم على الساحة بعد قيام النهضة الحسينية بشكل أبرز مما كان عليه من قبل (الغريفي، ١٩٩٠، ٢٨؛ الطباطبائي، ١٣٥٤، ٦٧ و٢٧٣). ويعتقد الدكتور الشبي «أن التشيع كان تكتلاً إسلامياً ظهرت نزعته أيام النبي، وتبلور اتجاهه السياسي بعد قتل عثمان، واستقل الإصطلاح الدال عليه بعد قتل الحسين(ع)». (الشبي، ١٩٨٢، ص ١٢؛ ولزيد من الاطلاع انظر: قياض، لاتا، ٤٦ - ٥٣).

ومحصلة الكلام، أن الذي نراه هو أن أصحاب هذه النظرية قد خلطوا بين مرحلتين: مرحلة ظهور الفكر الشيعي، ومرحلة تكامله، بل هم -في بعض الأحيان- يتعاملون مع ظهور بعض الفرق الشيعية الخاصة، كالكيسانية مثلاً، وكأنه ظهور لمذهب التشيع ككل. ونحتمل أيضاً أن يكون أصحاب هذه النظرية قد رأوا في حدوث ثورة التوأمين وقيامهم (وهي إحدى الحركات الشيعية التي تشكلت في قالب جماعة تعمل انطلاقاً من

وإنما كان يقصد بيان اختصاص أتباع الإمام(ع) آنذاك بلفظ «الشيعة» كاسم لهم. وأما النظرية الأخرى فتجعل التشيع واحداً من التدايعات الناجمة عن حادثة التحكيم التي احتتمت بها حرب صفين، وعلى أثر ظهور الفكر الخارجي الذي كان له موقفه المعروف تجاه الإمام(ع) ومقام الإمامة (قياض، لاتا، ٣٨؛ نعمة، ١٩٩٣، ٢٢).

وهذه النظرية تجعل التشيع نوعاً من ردة الفعل العقائدية والمذهبية لدى جمع من أصحاب علي(ع) وأتباعه، في قبالة الخوارج الذين كانوا يقولون بأن الإمامة من الأمور العامة وليست خاصة بأشخاص معينين. وعلى ضوء هذه النظرية، فإن الشيعة واجهوا تكفير الخوارج لعلي(ع) بتزيهه، معلنين إمامته واجباً إلهياً (صبحي، لاتا، ٤٠ - ٤١). وقد أصر بعض الباحثين على هذه النظرية حتى اعتبروا أن كثيراً من عقائد الشيعة في باب الإمامة جاءت متأثرة - ولو بنحو عكسي - بأراء الخوارج وعقائدهم (ن. م. ص ٤١).

والجدير بالذكر أن هناك من ذهب إلى أن بروز هذا الفكر كان زمن صلح الإمام الحسن(ع) ووقوف سليمان بن سرد في مواجهته(ع) (عمارة، ١٩٨٤، ١٥٦؛ ابن النديم، لاتا، ١٧٥).

د) التشيع انعكاس لشهادة الإمام الحسين(ع)

اختلف الباحثون في كيفية ومستوى التأثير الذي تركته هذه الحادثة على تاريخ التشيع، ولكن الأمر الذي لا مجال للإختلاف بشأنه، والذي لم ينكره - في الجملة - أحد من الكتاب والمؤلفين، هو أن شهادة مولود بيت النبوة، هذه الشهادة الدامية والفيجية المثيرة للأشجان، كان لها أكبر الأثر على الفكر الشيعي، بالنسبة لما لعبته من دور في رشده وكماله ورسوخه وتمايزه. غير أن الذي يستفاد من كلام بعضهم هو أن التشيع قد تأثر بثورة الإمام الحسين(ع)

الدوافع الدينية والعاطفية) أولى الجماعات والفرق الشيعية التي استطاعت أن تأخذ لنفسها طابعاً استقلالياً.

والأئمة من بعده (عمارة، ١٩٩٧، ٢٠٠ - ٢٠٢؛ عبد الحميد، لا تا، ١٦).

هـ) ظهور التشيع في عصر الإمام الصادق (ع):

حاصل كلام أصحاب هذه النظرية أننا لا نتردد أصلاً في وجود الشيعة والتشيع منذ القدم، بمعنى وجود جماعة غير منظمّة يجمعها الميل إلى إمارة عليّ بن أبي طالب (ع) للمؤمنين، والطموح إلى تقديمه وتفضيله على غيره من الصحابة، ولكنّ هذا شيء، وما هو متبادر إلى الأذهان من هذا المصطلح وما يُقصد عادةً منه في المحاورات العرفية شيء آخر. وفي الحقيقة ليس الذي يميّز الشيعة - بوصفهم فرقة من الفرق - عن غير الشيعة هو مجرد الاعتقاد بتفضيل عليّ (ع) وأولويّته وأحقّيته بالخلافة، ولا هو الانخراط في سلك جنده وجيشه (ع). وإتّما الأمر الذي يميّز الشيعة عن غيرهم هو عقيدة النصّ والوصية بالإمامة لعليّ بن أبي طالب (ع)، وإلّا، فلو اعتمدنا فقط على الاعتقاد بتفضيله أساساً ومعيّاراً للتشيع، لوجب إدخال بعض الفرق من قبيل معتزلة بغداد في دائرة التشيع، بل لدخل في الشيعة أيضاً بعض المعارضين للفكر الشيعي في الفكر والسياسة. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإنّ القول بـ «النصّ والوصية» في عليّ (ع) والقول بوجود إمامته (ع) وخلافته وأفضليّته على من سواه لهذا المقام على أساس النصّ لم يكن معروفاً مطلقاً قبل زمن الإمام الصادق (ع)، وإنّ الذي أتى بهذا القول وأقرّه هو الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) وبعض تلامذته المشهورين نظير هشام بن الحكم، ثمّ تتابع القول بذلك من قبل بقية أئمة الشيعة.

وقد حاول أصحاب هذه النظرية أيضاً تأييد ما ذهبوا إليه من خلال الإستشهاد بكلام بعض السابقين من أهل الاعتزال متمسكين ببعض ما جاء في مصادرهم القديمة (القاضي عبد الجبار، ١٩٦٦، ٥٢٨ - ٥٢٩؛ ١٩٦١، ٢: ١٢٧ و ١٣٠؛ وابن المرتضى، ١٤٠٨، ٢، باب ذكر المعتزلة).

ولكنّ الحقّ أنّه قد توفّر لدينا مجموعة من الشواهد والقرائن التاريخية والأحاديث المتضاربة التي تتمتع بدرجة أكبر من الصحة، وكلّها تحكي عن أنّ هذه العقيدة، أي: عقيدة النصّ والوصية، بل وحتى الاعتقاد بعصمة عليّ وسائر الأئمة (ع)، قد كان لها وجود فيما قبل عصر الإمام الصادق (ع) (راجع: جعفریان، ١٣٧٥، ١: ٣٠ - ٥٠؛ وفي باب الروايات الشيعية التي تركز على وجود هذه العقيدة لدى الصحابة، راجع: الكشي، ١٣٤٨، ٢٠ - ١٣٠؛ وراجع أيضاً: الحمّدي السري شهري، ١٣٧٥).

نعم، يمكن القول بأنّ ترسيخ هذه العقيدة كان في زمان الإمام الصادق (ع)، وأنّه هو - وتبعاً لمتطلّبات عصره وزمانه - من عمل على تثبيت أركانها، وأمّا بداياتها وأصل وجودها فينبغي البحث عنها في مرحلة زمنية سابقة على ذلك.

نقد وتحليل

اتضح لنا من خلال ما نقلناه من النظريات أنّ ثمة اختلافاً في الرأي يصل أحياناً إلى حدّ التناقض حول زمان ظهور التشيع وملاساته. وقد تجلّت هذه المشكلة إلى حدّ كبير في تعاريفهم واستعمالاتهم للفظ «الشيعة». بما له من المعنى الإصطلاحيّ.

وأهمّ الشواهد التي ساقها أصحاب هذه النظرية على مدّعاهم هذا هو أنّ أغلب الروايات الشيعية عن «النصّ والوصية» ترجع بسندها لتنتهي عند الصادق من آل محمد

٢٣٣، فما بعدها؛ زهدي جارالله، ١٤١٠، ٣٠ و٣١، ٣٨ - ٤٤، ٩٠ - ٩٤ وأنظر: يثري، ١٣٧٤، ٧٠، فما تلاها).
إنَّ المشكلة الأساسية في هذه النظرية تكمن في أنَّ أصحابها لم يأخذوا في اعتبارهم أبداً ما لدى المسلمين من جانب الإبداع في النواحي الفكرية، ولا ما أفرزته الأوضاع السياسية لعصر صدر الإسلام من ظروف وأحوال، كما أنَّهم أغفلوا تماماً تعدد المجتمعات الإسلامية وتغاضوا عن سعة مباني الثقافة الإسلامية وقدرتها على تقبل الكثرة في الآراء والأقوال.

وأقول أنَّ أساس الفكر الشيعي وقومه، وما امتازت به الفرق الشيعية عن غير الشيعية، هو الاعتقاد بأحقية أمير المؤمنين وسائر الأئمة المعصومين (ع) بالإمامة والإيمان بالأفضلية وبالمرجعية السياسية - المذهبية لأهل البيت (معناها العام) وحبهم ومودتهم وموالاتهم.

وليس من الصعب العثور على البذور الأصلية لهذا الاعتقاد منذ الأيام الأولى لمناداة بعض الصحابة بالأفضلية لعلي (ع) وأحقية في خلافته للمسلمين. بل أن هذا الاعتقاد كان أيضاً هو العلامة المائزة لمختلف أصناف الفكر الشيعي التي تشكلت. مرور الزمن (بما في ذلك الكيسانية، والزيدية، والإسماعيلية، والإمامية).

ومع ذلك، فمن وجهة نظر البعض لم يكن هذا المعتقد انعكاساً للعلاقات التي نشأت بين المسلمين وبين أصحاب الأديان والشرائع من اليهود والنصارى والمجوس وبعض أصحاب العقائد من الفرس فحسب، بل هو - علاوة على ذلك - من اختراع هؤلاء مباشرة وبشكل متعمد (راجع: القفاري، ١٩٩٤، ١: ٨٣ - ٨٩؛ عبد الحميد، لاتا، ٢٣ - ٣٣).

ونسعرض فيما يلي نظريتين حول منشأ التشيع ركز عليهما عدد من الباحثين المخالفين للشيعية، ونحجب عن كل منهما بما يتسع له المجال.

ومن خلال ذلك العرض الموجز الذي قدّمناه لكل من النظريات الآتية الذكر، استطعنا أن نقف إجمالاً على الأسباب التي أدت إلى هذا الاختلاف في التعبير والتحليل. ولكن مع ذلك نرى الحاجة إلى مزيد من التوضيح لحيثيات هذا الاختلاف وعوامله.

وهنا لو أغمضنا الطرف عما كان يعتمل في نفوس المؤرخين لعلم الفرق من الدوافع والخلفيات المذهبية المسبقة، والتي كانت تصطبغ معها - في الغالب - سوء النية، بل وأحياناً مشاعر العداة تجاه الفرق الأخرى، هذا العداة الذي كان يجرّضهم على السعي نحو نفي الأصالة والمتانة المذهبية عن كافة خصومهم الفكريين، لو تجاوزنا عن ذلك كله، لاستطعنا أن نقف على عوامل ثلاثة أخرى تتمتع بدرجة من الأهمية، وكان لها نصيب أيضاً في حدوث وتطور هذا الاختلاف المذكور، وهي:

١ - عدم الالتفات إلى عملية التكامل ومراحل التطور التي مرّت بها عقائد الشيعة.

٢ - الخلط بين اتجاه الفكر الشيعي وبين التشيع بوصفه مصطلحاً مذهبياً له استعمالاته الخاصة في التاريخ.

٣ - الجهل بمراتب التشيع وعدم القدرة على التمييز بين أنواعه والتعامل مع جميع أصنافه بنفس النمط والطريقة.

٣) التشيع حصيلة الروابط الثقافية والاجتماعية مع غير المسلمين:

ويدعي أصحاب هذا الرأي أنَّهم من خلال بحثهم تمكّنوا من الكشف عن وجوه من الشبه بين عقائد بعض المسلمين وعقائد غيرهم، مما جعلهم يُقدمون مباشرة على التشبيث بعنصر الأخذ والإقتباس وجعله محوراً أقاموا عليه بنيان تحليلاتهم التي أطلقوها وعمّموها على مباني الفرق الإسلامية وأصولها ومعتقداتها (أبو زهرة، لاتا، ١٠٠، ١٠٧، ١٢٤، ١٧٤؛ أحمد أمين، لاتا، ١:

أ) العلاقات الثقافية والاجتماعية التي أنشأها المسلمون مع الفرس:

طرح هذه الدعوى على يد المستشرقين وبعض المؤلفين من أهل السنة (للاطلاع على بيان مختصر لهذه النظرية مع نقدها، راجع: عبد الحميد، لاتا، ٢٣ - ٢٨؛ ولتفصيل أكثر في نقدها ومناقشتها راجع: السبحاني، ١٤١١، ٦: ١٢١ - ١٣٣). وأهم ما يركز عليه أصحاب هذه النظرية هو -على وجه العموم- وجود عنصر المشابهة بين ما يثبته الشيعة في عقيدتهم حول الإمامة من المكانة والمترلة، وبين عقيدة الفرس بالنسبة إلى حكامهم وملوكهم، وأن كلا الجانبين يعتقدان بأن الحقّ الثابت لقادتهم وزعمائهم ثابت لهم بالوراثة وبالحقّ السماويّ الإلهيّ.

وبحسب هذه الدعوى فالفرس بعد سقوط ملوكهم من الساسانيين، وخضوعهم لسيطرة الإسلام والمسلمين دخلوا في الإسلام، ولكنهم لم يتجرّدوا من عقيدتهم السابقة التي توارثوها أجيالاً، وهي عقيدة قائمة على تسمية أنفسهم بالأحرار والأسياد، واعتبار سائر الناس عبيداً لهم، وعلى النظرة إلى الملك نظرة فيها معنى التقديس، وبعد إظهارهم للإسلام نظروا هذا النظر نفسه إلى عليّ (ع) وذريّته، ثم قاموا بنقل ثقافتهم ونظرتهم هذه إلى بعض المسلمين.

وكان مما عزّز هذه العلاقة أيضاً بين الفرس والشيعة بزعم هؤلاء، مصاهرة الإمام الحسين (ع) للفرس؛ لأنّه تزوّج ابنة أحد الملوك الساسانيين، والتي وُلدت له الإمام علي بن الحسين، فكان الفرس يرون أن الدم الذي يجري في عروق علي بن الحسين (ع) وأولاده من الأئمة هو منهم (مما أدّى بالتالي إلى تقوية الروابط العاطفية التي تجمعهم بأهل البيت) (إضافة إلى المصادر المتقدمة، راجع: الوائلي، ١٤١٤، ٦٤ - ٧١؛ القفاري، ١٩٩٤، ٨٤ - ٨٦. وراجع في هذين الكتاين المصادر القديمة: ابن حزم،

١٤١٦، ٢: ١١٥؛ المقرئ، ١٩٥٩، ٢: ٣٦٢. ولكن بعض الباحثين تتبّع القرائن والوثائق التاريخية لهذا الادعاء، واعتبر قصة هذا الزواج مخترعة وموضوعة. انظر: شهيد، ١٣٦٥، ٧ - ٢٧؛ وكذلك تردّد الشهيد المطهري أيضاً في صحّة هذه القصة. انظر: مجموعته آثار (المؤلّفات الكاملة) ١٤: ١١٣ - ١٢٥).

بل يذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ يقول بأنّ الفرس كانوا آنذاك على صراع مع الإسلام وحكامه، فراموا كيد الإسلام ومحاربتة، فأروا أن كيدهم على الحيلة أجمع، فأظهر قوم منهم الإسلام، وحاولوا استمالة بعض المسلمين بإظهار المحبة لأهل البيت (ع)، واستغلال مقامهم بين الناس وحبّ الناس إليّهم، وجعلوا الدعوة إلى إمامتهم طريقاً لهم إلى الإنتقام من المسلمين (القفاري، ١٩٩٤، ١: ٨٤).

ومن هذا المنطلق فنحن نرى أن هذه الأمور المشار إليها لا تمثّل سوى جزء من مجموع العوامل والظروف التي أدّت إلى تسارع وتيرة الإلتجاء نحو الشيعي وانتشاره، وليست هي العامل الرئيسيّ في تشكّله، كما زعم أصحاب هذه النظرية.

يُضاف إلى ما تقدّم أنّه لو تنازلنا وقبلنا بالادعاء القائل بأنّ الفرس حاولوا -بعد اعتناقهم للإسلام- أن يبقوا على أفكارهم ومعتقداتهم بشأن ملوكهم ومكانتهم، وسعوا إلى الحفاظ على استمرارية هذه المعتقدات، وأنّهم عمدوا إلى ابتداء نوع جديد من السلطنة، وإقحام هذا النوع في مفردات الثقافة الإسلامية لغرض تطبيقه على كبار المسلمين ووجوههم، و كانوا كذلك فعلاً، فمن كان أنسب من الحكّام الأمويين والعباسيين بأن تُعطى لهم هذه المكانة والمترلة؟! وخاصة أن كلّ واحدٍ من هؤلاء الحكّام كان يرى في نفسه -بنحوٍ أو بآخر- إلهاً حاكماً على الأرض، بدليل كثرة تأكيدهم على عنصر الوراثة ودوره في انتقال الحكم والخلافة.

بن سبأ. وقد دأب جمع من علماء أهل السنة المعاصرين على نشر هذه النظرية والترويج لها، ومثلهم - بل بشكل أكبر - صنع بعض المستشرقين (راجع: السبحاني، ١٤١١، ٦: ١٠٦-١٢١؛ عبد الحميد، لاتا، ٢٨-٣٣؛ الوائلي، ١٤١٤، ١٣٠-١٣٥ وراجع أيضاً: صبحي، لاتا، ٣٧، صائب عبد الحميد، ١٩٩٧، ٤٤٥ و٤٦٥ وآل محسن، ٢٠٠٢، ١١٢-١٢٦).

وقد سبق إلى ذلك عدد من المصادر الإسلامية القديمة التي اشتملت على ما يؤيد هذه النظرية (المطفي، ١٩٩٣، ٢٥؛ الطبري، ١٤٠٩، ٤: ٣٤١؛ اليميني، ١٤١٤، ٢: ٢٧١).

ويميل أصحاب هذه النظرية في بحثهم عن أصول التشيع إلى البحث عن جذوره اليهودية، معتبرين - في هذا السياق - أن كثيراً من أصول الشيعة ومبانيهم الفكرية، وبخاصة تلك التي تتمحور حول منزلته ومقام أمير المؤمنين (ع)، من الاعتقاد بالنص على إمامته وخلافته، وأنها مما أوصى به النبي (ص)، وأنه كان عاتباً على الخلفاء الثلاثة لغضبهم حقه في الخلافة، إلى جانب اعتقادات أخرى، كالاقتقاد بالرجعة، هي كلها من مخترعات هذا الرجل اليهودي الأصل والذي يدعى عبد الله بن سبأ، وذلك بشكل مباشر (صبحي، لاتا، ٣٦). ولدراسة ورد دعاوى التشابه الفكري بين الشيعة واليهود راجع: آل محسن، ٢٠٠٢، ١٤٢ فما بعدها).

كما عمد أصحاب هذه النظرية إلى ادعاء أن هناك وجوه شبه بين الشيعة واليهود، وأن كثيراً من معتقدات الشيعة الأخرى مأخوذة من أفكار اليهود وعقائدهم (انظر: اليميني، ١٤١٤، ٢: ٢٧١؛ القفاري، ١٩٩٤، ٨٢).

والباحثون يرون أن أقدم المصادر التي تؤيد هذه النظرية هو كلام للطبري يبتني على رواية سيف بن عمر. وبحسب ما نقله الطبري (ت ٣١٠ هـ)، فابن سبأ هذا كان يهودياً

فعلى أصحاب هذه النظرية أن يقدموا جواباً عن هذا التساؤل، وهو ما السبب في أن الفرس لم يجتاروا من شخصيات المسلمين وأعيانهم ووجوه المجتمع الإسلامي سوى أشخاص عرفوا بأنهم كانوا ينادون صراحةً، وفي أكثر من مناسبة، بنذهم التفرقة على أساس واعتبارات من قبيل العبد والمولى، أو السلطان والرعية.

مع أن الفرس لو كانوا حقاً راغبين في الإبقاء على أفكارهم ومعتقداتهم والحفاظ على استمراريتها، لكان الأنفع لهم - بحسب طبيعة الأمور - أن لا يجتاروا لتطبيقها إلا أشخاصاً يعيشون نمط الحياة نفسه الذي كان لدى السابقين من ملوكهم الفرس، أشخاصاً يرون نفس رؤيتهم في تقسيم الناس ونظام تصنيفهم الطبقي. ومعروف أن من أبرز المصاديق أن الذين تنطبق عليهم هذه المواصفات هم - وبشكل عام - خلفاء بني أمية وبني العباس، لا أهل البيت، وهم عترة النبي (ص) ورهطه، والذين لمحت السنة العامة والخاصة على السواء بذكر زهدهم وعيشتهم المتواضعة، وأن ثروات الدنيا وجاهها الظاهري لم تكن تعني لهم شيئاً.

وأهم من ذلك كله أن الاعتقاد بإمامة علي (ع) وأولاده وأنها حق إلهي، استطاع أن يبرز كظاهرة في مرحلة سابقة على دخول الفرس في الإسلام، بل يمكن أن نعد من أوائل المبلغين لهذه العقيدة - والتي تمثل الركيزة الأساسية للتشيع الاعتقادي، والوجه المشترك الذي اجتمع عليه الشيعة لاحقاً - رجالاً أوائل من أمثال أبي ذرّ وعمّار وحذيفة والمقداد، على خلاف مزاعم أعداء الشيعة (الشيبي، ١٩٨٢، ص ٢٢ - ٦٥).

ب) نشأة التشيع وعلاقته بعبد الله بن سبأ:

يزعم أصحاب هذا الإدعاء أن ظهور التشيع - كفكر مستقل - يعود إلى أواخر عهد خلافة عثمان وأوائل عهد خلافة الإمام علي (ع)، وإنما كان ذلك على يد عبد الله

هذا بالإضافة إلى ما تضمنته بعض المصادر التاريخية والرجالية، وكذلك بعض مصنفات علم الفرق من روايات عن أهل البيت (ع) تؤكد على وجود شخص باسم ابن سبأ، وأنه كان من الغلاة في أمير المؤمنين (ع)، وأنه قُتل على يده (ع). بل في هذه الروايات، وعلى خلاف تلك النقولات التاريخية المشار إليها، لا وجود أصلاً لأي حديث عن دور كان لابن سبأ في الانقلاب على عثمان، كما أنها لا توجد إشارة فيها إلى أنه كان يعلن القول بوجوب الإمامة والوصاية لعلي (ع)، وإنما تحدت هذه الروايات فقط عن أنه ادعى الألوهية لعلي (ع)، وأن الإمام (ع) هو الذي قتله (راجع: الكشي، ١٣٤٨، تحت رقم ١٧٠-١٧٤).

والملفت للنظر هنا أننا بعد مطالعة كلام المؤلفين الذين تبنا هذا التحليل استطعنا أن نقف على حقيقة أن كل واحد منهم قد وقع في التهافت وناقض نفسه في موضع آخر من كتابه. ولك أن تجد نماذج لهذا التهافت في نقل كلام كثير منهم من أمثال المقرئ وابن خلدون وأي زهرة ونشأ وأحمد وأمين وغيرهم، مما لا يتسع المجال لذكره وتفصيله.

ولعل هذه الملاحظة قد شككت الدافع لدى عددٍ من المستشرقين والمؤلفين من أهل السنة نحو إنكار وجود عبد الله بن سبأ بتاتا، أو على الأقل إنكار أن يكون لشخص كهذا تأثير إلى الدرجة التي يدعيها معارضو الشيعة ومخالفوهم، معتبرين أن قصة هذا الرجل كما يرويها هؤلاء المخالفون هي من وضعهم واختراعهم، وأنها ذات منحنى أسطوري يقرب إمكانية أن القول بأن ظهورها إنما كان انعكاساً للأوضاع والأحوال التي كانت سائدة في بدايات العصر العباسي، وهي مرحلة تمكن فيها التشيع من طي مراحل الأولى، واستطاع أن يبرز نفسه على هيئة تشكيل جماعي.

أظهر الإسلام في عهد عثمان، وأخذ ينقلب وقد ورد هذا الكلام أيضاً في بعض المصادر الشيعية القديمة المعاصرة للطبري (النوبختي، ١٣٥٥، ٣٢؛ الأشعري القمي، ١٣٦١، ٢٠؛ الكشي، ١٣٤٨، ١٠٦-١٠٩؛ الرازي، ١٩٧٥، ص ٣٠٥).

نقد وتحليل

ما نلاحظه بوضوح هو أن هؤلاء المؤلفين والكتاب أتوا فيما نقلوه من أخبار ابن سبأ بروايات مختلفة ومتناقضة، بحيث لو أردنا الاعتماد على هذه الروايات في دراستنا لآراء ابن سبأ ومعتقداته لكاننا في مواجهة كلام متهافت ومتناقض؛ فابن سبأ -على ضوء هذه الروايات والنقولات- هو شخص كان يقول، بأن علياً هو الله، وبأنه إمام مفترض الطاعة، ومن ناحية أخرى يقول أنه الإمام الغائب الذي بعد ظهوره سيملاً الأرض قسطاً وعدلاً، وسيسوق العرب بعصاه. وكيف يستقيم الجمع بين القول بألوهيته وبين القول بإمامته وبكونه هو الإمام القائم؟! كما أنه بناءً على هذه الطائفة من النقولات، فإن هذا الشخص المذكور كان يدعي أحياناً رجعة رسول الله (ص)، وأحياناً رجعة علي (ع). أضف إلى ذلك أنه لم يظهر من تلك النقولات حال ذلك الرجل لا من ناحية بداية أمره، ولا من ناحية كيفية التعاطي معه، ولا من ناحية مصيره النهائي. كما لم يرد في المصادر التاريخية المشهورة والقديمة، كآثار الواقدي وابن سعد واليعقوبي والبلاذري، تفصيل لتحركاته ودوره الفكري والسياسي، وإنما تعرض لذلك بعض المؤرخين اعتماداً على روايات سيف بن عمر، منهم الطبري المعاصر لأبي حاتم والنوبختي، وسار على منواله من بعده ابن عساكر والذهبي.

أبي الحديد، ١٣٨٧، ٦: ١٧٤-٢٠٤؛ البلاذري، ١٤١٧، ٣: ٣٥٠، و ما تلاها). ولا شك في أن هذا الإعتقاد منهم بأفضليته (ع) لم يكن مجرد قرابته من النبي الأعظم (ص)؛ إذ لم يكن الآخرون محرومين من ذلك بشكل تام، بل كان لبعضهم نصيب في هذه القرابة. كما لم يكن قولهم بتفضيله ولزوم تقديمه من حيث ما كان له من المكانة الإجتماعية؛ إذ من غير المعلوم أنها كانت فيه (ع) أبرز من غيره.

ومن هنا نستطيع القول بأن عقائد هذه المجموعة من الأصحاب كانت تقوم على أساس روابط معنوية وصلات مذهبية، وعلى أسس كان النبي (ص) هو بنفسه من شيدتها وأقامها (للقوف على تفاصيل لذلك استناداً إلى المصادر القديمة، راجع: الغريفي، ١٩٩٠، ٣٤، فما بعدها). كما أنه من الطبيعي، أن مثل هذه النظرة إليه (ع)، وإلى التربية المباشرة له من قبل النبي (ص)، وكذلك إلى سعة دائرة علمه (ع)، لا يمكن أن تكون قد تبلورت وبرزت بنحو مفاجئ ومن دون أية مقدمات مسبقة.

ولا غرو، فإن حياة الزهد التي كان يعيشها أمير المؤمنين (ع)، وما كان عليه من الصفات والإطمئنان الروحي، ومكارم الأخلاق، وعلمه الوافر بمعارف الدين، من ناحية، ومن ناحية أخرى إخلاصه وتضحياته وصبره وتحمله للصعاب في زمن الرسالة (البلاذري، ١٤١٧، ٢: ٣٥٠-٣٧٥؛ جعفریان، ١٣٧٤، ٢: ١٩٧-٢٢٦ و ٣٣٦-٣٣٩)، كل ذلك، أدى إلى أن تكون العلاقة والمودة والثقة التي يحملها هذا الجمع من الصحابة تجاهه (ع) علاقة متميزة، ومودة وثقة من نوع خاص واستثنائي. وهذا ما جعل عدداً منهم يصرّ على الالتفاف حوله، حتى عُرفوا بأنهم أتباع علي (ع) وأنصاره.

ومن جملة الأشخاص الذين أنكروا وجود ابن سبأ من ناحية تاريخية الدكتور طه حسين، الذي خصص للحديث عن هذه الشخصية فصلاً مستقلاً من كتابه «الفتنة الكبرى»، جاء فيه:

«أن ابن السوداء لم يكن إلا وهماً، وإن وُجد بالفعل، فلم يكن ذا خطر كالذي صورّه وصوروا نشاطه أيام عثمان وفي العام الأوّل من خلافة عليّ، وإنما هو شخص أدخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم، ولم يدّخروه للخوارج» (طه حسين، ١٩٦٤، ص ٤٦-٤٧).

والنتيجة أن «ما ذهب إليه بعض الكتّاب من أن مذهب التشيع من بدعة عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء هو وهم وقلة علم بتحقيق مذهبهم، ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراعتهم منه ومن أقواله وأعماله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم في ذلك، علم مبلغ هذا القول من الصواب» (كرد عليّ، ١٣٨٩، ٦: ٢٥١).

ومن نافلة القول هنا أن الجواب المنطقي الذي يمكن توجيهه إلى أصحاب هذه النظرية، هو أن التشيع كمذهب عقائدي -بغض النظر عن الأحاديث النبوية التي لها دلالة على إثبات أسس التشيع ومبانيه- يعدّ من الظواهر التي برزت في مرحلة سابقة على حوادث خلافة عثمان، وذلك على أيدي عددٍ من أجلاء أصحاب رسول الله (ص). يشهد لذلك ما سجّله التاريخ من اعتراض ومخالفة عددٍ من أبرز أصحاب النبي (ص) على اختيار أبي بكر للخلافة، مع ما كان له من مكانة اجتماعية، ودعوتهم - في خضم أحداث السقيفة- إلى أن تكون الخلافة لعلي (ع)، مما يدل على أن هذا الجمع من الصحابة كانوا يرون علياً (ع) هو الأحق والأجدر بالإمامة والخلافة من غيره (راجع: البيهقي، لاتا، ٢: ١٢٤-١٢٥؛ الطبري، ١٤٠٩، ٢: ٤٤٦-٤٤٩؛ ابن

النتيجة

وعلى هذا الأساس، يبدو أنه من غير البعيد أن يُقال أن ظهور النواة الرئيسيّة والبذور الأولى للتشيع -الذي هو بمعنى الاعتقاد بمحوريّة الإمام عليّ(ع) في فهم الإسلام، ولزوم اتباع الإسلام كما يراه عليّ(ع)- إنما كان في نفس زمان النبيّ الأعظم(ص)، وأما سلسلة الأحداث والوقائع والتحوّلات التي جرت إلى عصر الصادقين، فإنّ كلّ واحدٍ منها يشكّل عاملاً من العوامل التي كان لها تأثيرها على تطوّر الشيعة وتكامل الفكر الشيعي، وبالتالي على الدفع بهذه الجماعة نحو المزيد من الفرادة والتميّز عن خصومهم ومنافسيهم من أتباع الفرق الأخرى، لا كونه هو السبب في أصل ظهور التشيع ونشأته.

فهرس المصادر والمراجع

- [٨] —، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لاتا.
- [٩] ابن حجر الهيتمي، أحمد، الصواعق المحرقة، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤ق.
- [١٠] ابن حزم، علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميره، ٥ج، دارجيل، بيروت، ط ٢، ١٤١٦ق.
- [١١] ابن المرتضى، أحمد بن يحيى، طبقات المعتزله، بيروت، ١٤٠٨.
- [١٢] ابن النديم، محمد بن اسحاق، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، نشر جامعة طهران (انتشارات دانشگاه تهران).
- [١٣] أبو زهره، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، لاتا.
- [١٤] اشعري قمي، سعد بن عبدالله، المقالات والفرق، مقدمه وتصحيح محمد جواد مشكور، مركز انتشارات علمي وفرهنگي، طهران، ١٣٦١.
- [١٥] أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لاتا.
- [١٦] —، فجر الإسلام، دارالكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩م.
- [١٧] أمين، سيد محسن، أعيان الشيعة، تحقيق حس الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لاتا.
- [١٨] أميني نجفي، عبدالحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دارالكتب الإسلامية، طهران، ط ٢، ١٣٦٦.
- [١٩] بلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تصحيح سهيل ذكار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧ق.
- [٢٠] ثقفى، إبراهيم بن محمد، الغارات، تصحيح محدث أرموي، جمعية الآثار الوطنية، (انجمن آثار ملی)، طهران، ١٣٥٥.

- [١] القرآن الكريم.
- [٢] نهج البلاغة.
- [٣] آل كاشف الغطاء، محمد حسين، أصل الشيعة وأصولها، تحقيق علاء آل جعفر، مؤسسة الإمام عليّ، قم، ١٤١٥ق / ١٣٧٣ش.
- [٤] آل محسن، علي، عبدالله بن سبأ: دراسة وتحليل، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٢م.
- [٥] ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء التراث العربي، قم، بيروت، ١٣٨٧ق.
- [٦] ابن الأثير، عزالدين، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٩ق.
- [٧] ابن تيميه، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: محمد حامد الفقهي، دارالكتب العلمية، القاهرة، لاتا.

- [٢١] جعفریان، رسول، تاریخ تشیع در ایران از آغاز تا قرن دهم هجری، انتشارات انصاریان، قم، ۱۳۷۵.
- [٢٢] جعفریان، رسول، تاریخ سیاسی اسلام، ج ٢ (تاریخ خلفا)، وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامی، سازمان چاپ و انتشارات، طهران، ۱۳۷۴.
- [٢٣] جعفری، سید حسین، تشیع در مسیر تاریخ، ترجمه سید محمد تقی آیت اللهی، دفتر نشر فرهنگ اسلامی، طهران، ۱۳۷۴.
- [٢٤] حسن إبراهيم حسن، تاریخ سیاسی اسلام، ترجمه ابوالقاسم پاینده، جاودان، طهران، ۱۳۷۵ - ۱۳۶۰.
- [٢٥] الحسینی، محمدعلی، فی ظلال التشیع، مكتبة الألفین، الكويت: ۱۹۸۳ م.
- [٢٦] رازی، أبوحاتم، كتاب الزينة تصحيح عبد الله سلوم سامراي، القاهرة، ۱۹۵۷ م.
- [٢٧] زين، محمد حسين، الشيعة في التاريخ، صيدا، السيد مرتضى الرضوى صاحب مكتبة النجاح، ۱۹۳۸ م/ ۱۳۵۷ ق.
- [٢٨] سبحان، جعفر، بحوث في الملل والنحل، الدار الإسلامية، بيروت، ۱۴۱۱ ق.
- [٢٩] السيوطی، عبدالرحمان بن أبی بکر، تفسير الدر المنثور في التفسير المأثور، دارالفکر، بيروت، ۱۴۰۳ ق.
- [٣٠] شهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق محمد بن فتح بدران، انتشارات شريف رضى، ط ٣، قم، ۱۳۶۳.
- [٣١] شهيدى، سيد جعفر، زندگانی علی بن الحسين (ع)، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، طهران، ۱۳۶۵.
- [٣٢] شیبی، کامل مصطفی، الصلة بين التصوف والتشيع، دار الأندلس، بيروت، ۱۹۸۲ م.
- [٣٣] صائب عبد الحميد، تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي مسار الإسلام بعد الرسول ونشأة المذاهب، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ۱۹۹۷ م.
- [٣٤] صبحی، أحمد محمود، نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثني عشرية، تحليل فلسفي للعقيدة، دارالمعارف بمصر، القاهرة، لاتا.
- [٣٥] الصدر، محمد باقر، البحث حول الولاية، دار التعارف، بيروت، ۱۳۹۹.
- [٣٦] _____، نشأة التشيع والشيعة، تصحيح عبد الجبار شراره، مؤسسة الغدير للدراسات الإسلامية، قم، ۱۴۱۴ ق/ ۱۹۹۳.
- [٣٧] صدوق، أبي جعفر، محمد بن علي بن الحسين، صفات الشيعة، اعلمي، طهران.
- [٣٨] طباطبائي، محمدحسين، شيعة در اسلام (مقدمه: سيد حسين نصر)، المكتبة الإسلامية الكبرى (كتابخانه بزرگ اسلامي)، طهران، ۱۳۵۴ ش.
- [٣٩] طبری، أبو جعفر، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ۱۴۰۹.
- [٤٠] طوسی، محمد بن حسن، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، با مقدمه حسن مصطفوی، جامعة مشهد، كلية الاهليات و المعارف اسلامية، مشهد، ۱۳۴۸.
- [٤١] طه حسين، الفتنة الكبرى، دار المعارف، القاهرة، ۱۹۶۴.
- [٤٢] عبدالحميد، عرفان، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، مطبعة أسد، بغداد، لاتا.
- [٤٣] العسكري، السيد مرتضى، الأسطورة السبئية، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، مركز الطباعة والنشر، طهران، ۱۴۲۴ ق.
- [٤٤] _____، معالم المدرستين، مؤسسة البعثة مركز الطباعة والنشر: المجمع العلمي الإسلامي، طهران، ۱۹۹۲ م.

- [٤٥] عماره، محمد، الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤ م.
- [٤٦] —، تيارات الفكر الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٧ م.
- [٤٧] الغريفي، سيد عبد الله، التشيع نشوؤه، مراحل، مقوماته، دار الموسم للإعلام، بيروت، ١٩٩٠ م/١٤١١ ق.
- [٤٨] الفرات الكوفي، فرات بن ابراهيم، تفسير فرات كوفي، تحقيق محمد الكاظم، سازمان چاپ ووزارت ارشاد طهران، ١٤١٠ ق.
- [٤٩] فياض، عبد الله، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، ١٩٨٦ م
- [٥٠] قفاري، ناصر بن عبد الله بن علي، أصول مذهب الشيعة الإمامية الأثنى عشرية عرض ونقد، ١٩٩٤ م/١٤١٥ ق.
- [٥١] كرد علي، محمد، خطط الشام، دارالعلم، بيروت، ١٣٨٩.
- [٥٢] مركز الدراسات و البحوث الإسلامية التابعه لمكتبة الإعلانات الإسلامية الحوزة العلمية في قم - قسم المعاجم المفهرس لألفاظ أحاديث بحار الأنوار، (دفتر تليغات اسلامي حوزة علميه قم، مركز مطالعات و تحقيقات اسلامي)، قم، ١٤١٣-١٤١٨ ق.
- [٥٣] مطهري، مرتضي، مجموعه آثار، صدر، طهران، قم، ١٣٦٨.
- [٥٤] مظفر، محمد حسين، تاريخ الشيعة، مكتبه بصيرتي، قم.
- [٥٥] مغنيه، محمد جواد، الشيعة في الميزان، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٩ م.
- [٥٦] مقريزي، أحمد بن علي، الخطط المقريزية، مكتبة إحياء العلوم، لبنان، ١٩٥٩ م.
- [٥٧] ملطي، أبو الحسين، التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع، تحقيق محمد زينهم، مكتبة مدبولي، ط ١، القاهرة، ١٩٩٣ ق.
- [٥٨] ناشي أكبر، مسائل الإمامة، تحقيق فاس اس، بيروت، ١٩٧١ م.
- [٥٩] نشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٩٧ م.
- [٦٠] نعمه، عبد الله، روح التشيع، دار البلاغة، بيروت، ١٩٩٣ م.
- [٦١] نوبختي، حسن بن موسى، فرق الشيعة، مكتبة مرتضوية، نجف الأشرف، ١٣٥٥ ش.
- [٦٢] وائلي، أحمد، هوية التشيع، دار الصفوة، بيروت، ١٤١٤ ق.
- [٦٣] يعقوبي، أحمد بن محمد، تاريخ يعقوبي، دار صادر، بيروت، لا تا.
- [٦٤] يميني، أبو محمد؛ عقائد الثلاث والسبعين فرقة، تحقيق: محمد بن عبد الله زربان الغامدي، ٢ ج، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، ط ١، ١٤١٤ ق.

خاستگاه تشيع و تاريخ پيدائش آن از منظرهاى مختلف: نقد و تحليل

على آقانوورى^١

تاريخ دريافت: ١٣٨٩/١٠/١٢

تاريخ پذيرش: ١٣٨٩/١٢/٢٢

نقد و بررسى دیدگاه‌های مختلف در باب پیدایش تشیع و تاریخ شکل‌گیری آن، موضوع این پژوهش است که با استناد به منابع کهن و پژوهش‌های معاصران سامان گرفته است. نویسنده با استناد به منابع مختلف تاریخی - کلامی و پژوهش‌های معاصر درصدد است تا به بیان مستندات و ریشه‌های فکری و مذهبی و جهت‌گیری‌های کلامی، و نیز به بیان خلط و تناقض‌گویی برخی از این دیدگاه‌ها بپردازد. همزمانی پیدایش اساس تشیع با ظهور اسلام و طراحی آن به دست پیامبر؛ شکل‌گیری تشیع به‌عنوان بازتابی از تحولات فکری، سیاسی و مذهبی صدر نخست؛ و پیدایش تشیع به‌عنوان یکی از پیامدهای فکری روابط مسلمانان با بیگانگان؛ از جمله دیدگاه‌های مهمی است که نویسنده درصدد بازگویی و نقد و بررسى آنها به روش تاریخی است.

کلید واژگان: تشيع، خاستگاه تشيع، عبدالله بن سبا، ايرانيان، تحولات سياسى و مذهبى

١. استادیار و عضو هیأت علمی دانشگاه ادیان و مذاهب، aghanoorii123@gmail.com